رابعاً : آثار مسؤولية الوالدين في التربية

وبناءً على هذه النصوص الواضحة الصريحة في مسؤولية الوالدين ؛ ندرك الإثم العظيم الذي يرتكبه بعض الوالدين في هذا العمر ، فإنهم يهملون تربية الأولاد ، ويتركونهم يعبثون بالأخلاق ، ويهدرون القيم ، ويتخلَّقون بعادات الغرب وتقاليده ، ويسارعون إلى اقتناص (الموضات) الأجنبية ، ويتشكَّلون بأشكال الهمجية والوحشية والبدائية ؛ من إطالة الشعر ، وإهمال النظافة ، والارتماء على الأرصفة ، والاختلاط المشين في الحفلات والندوات ، وإرواء الغرائز والشهوات بدون قيد ولا شرط ، والتخنُّث والترجُّل ، ويصدق عليهم حديث رسول الله ﷺ : « **لتتبعنّ سنن الذين من قبلكم ، شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، حتى لو دخلوا جُحر ضبٍّ لا تبعتموهم ، قلنا : اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟!** »[١] .

وقد يصل الأمر إلى الظهور بهذه الأشكال أمام الآباء والأمهات الذين يَدَّعُونَ الديْن والتدين ويتظاهرون بالإسلام ، دون أن تتحرَّك عواطفهم بالاستنكار ، أو تهتز أفئدتهم بالسخط ، أو ينطق لسانهم بالنصح أو بالوعظ أو بالإرشاد ، وإن أنكر أحد الآباء على بعض ولده ، ووجهه إلى الصواب فربما أعرض الولد ، ولم يستجبْ ، وما ذلك إلا من التقصير في التربية على خلق الإسلام وسلوكه .

---

(١) رواه البخاري ، ومسلم ، وابن ماجه ، وأحمد عن أبي سعيد ، ورواه الحاكم عن أبي هريرة (الفتح الكبير ٣/ ٨) .

يقول رسول الله ﷺ : « **كفى بالمرء إثماً أن يُضيّع من يقوت** »[١] ، فهذا الابن الذي رعاه أبوه صغيراً ، وسهر عليه الليل والنهار ، وكدّ وكافح في سبيله ، وسعى وكسب له القوت ، وجمع له المال الحلال أو الحرام لتربيته وتنشئته ، ليراه غرسة من بعده ، أصلها ثابت وفرعها في السماء ، ويأمل أن يكون ابنه ذِكْراً طيِّباً له ، وامتداداً لحياته ، إذ يخيب ظنه به ويفقد رجاءه في سلوكه ، ويصبح الوالد في وادٍ فكريٍّ وديني واجتماعي ، ويعيش الابن في واد آخر ، وتنقطع الصلة بينهما ، فيصدق على هذا الابن وصف القرآن الكريم : ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ [هود : ٤٦] .

ويعيش الآباء في صراع عنيف ، بين الاعتزاز بالأبناء في تحقيق الآمال والأحلام ، وبين الاستنكار من أعمالهم ، وتتكرَّر الصورة العجيبة التي يراها الإنسان في مجتمع اليوم ، وهي من صور التناقضات التي يعيشها المسلمون في ديارهم وأوطانهم ، وهذه الصورة ذات وجهين :

الوجه الأول : أن ترى بعض الآباء والأمهات منغمسين في الحياة المادية ، يغرقون في الملاهي والشهوات ، ويستهينون بالقيم والمبادىء ، ويجاهرون بالكفر والفسوق ، بينما ترى أبناءهم وبناتهم على العكس تماماً : قد منّ الله عليهم بالإسلام والإيمان ، وسلكوا طريق الهدى والرشاد ، والتزموا الإسلام عقيدة وشريعة ، فكراً وتطبيقاً ، نظاماً وعملاً ، فينكر عليهم الوالدن ذلك ، ويسخرون منهم ، ويستهينون بأعمالهم وسلوكهم .

ومسؤولية هؤلاء الآباء والأمهات أمام الله تعالى واضحة لا لبس

---

(١) رواه أبو داود عن عبد الله بن عمرو ، كتاب الزكاة ، باب في صلة الرحم ، حديث رقم (١٦٩٢) ، وقال السيوطي : حديث صحيح .

فيها ، وخطرهم على المجتمع والأمة جسيم ، فهم يمنعون الخير ، ويأمرون بالمنكر ، وينهون عن المعروف ، وينطبق عليهم قوله تعالى : ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ [العلق : ٩ـ١٠] .

ولا تقلُّ جريمة هؤلاء عن جريمة الكفار المعاندين الذين وقفوا في وجه الحقِّ والدعوة إلى الله ، ومنعوا الناس من الدخول في دين الله ، والإيمان برسول الله ، وحالوا بين الضعاف وبين الهدى والنور ، وينطبق على الأولاد دعاءُ الرسول ورجاؤه أن يخرج من أصلاب الآباء من يوحِّد الله ويعبده .

الوجه الثاني : وهو الأكثر شيوعاً ، يتمثَّل في تلك الغالبية من جيل الكهول ، رجالاً ونساءً ، الذين يتحلَّون بأكثر المظاهر الدينية ، بينما ترى أبناءهم وبناتهم من جيل الأطفال والشباب ، يتخلون عن كل شكل أو زيّ ، أو علامة أو مظهر ، يُمتُّ إلى الإسلام بصلة ، ويقلِّدون الأجانب في كل صغيرة وكبيرة ، حتى يخيل إليك أن عربياً يسير بجانب أمريكي أو روسي ، الأول تعلوه مهابة الإيمان ، ويرتدي بزة الإسلام ، ويحضر الجمعة والجماعات ، والآخر ينسلخ عن تقاليد مجتمعه ، ومبادىء شريعته ، ليخلع على نفسه صورة الغربي ، كما يخيل إليك أن امرأة مسلمة تسير بمحاذاة فتاة فرنسية أو إنكليزية ، والفتاة عارية الرأس ، كاشحة الصدر ، كاشفة للساقين ، كأنها عارضة للأزياء .

هذه الصورة شائعة في المجتمعات التي تقطن أرض العروبة والإسلام ، وهي صورة عجيبة في ملامحها ، غريبة عن محيطها ، متنافية مع المنطق والعقل ، وهذا الأمر يرجع إلى مسؤولية الآباء والأمَّهات عن تربية أولادهم ، ومسؤولية الأمة والمجتمع والدولة عن مناهج التعليم ، ورعاية الجيل الناشىء ، وإعداده إعداداً صالحاً ، بتثبيت العقيدة ،

واعتناق الفكر الإسلامي الصحيح ، لإزالة التناقض بين جيل الآباء والكهول ، وجيل الأطفال والشباب ، وإلاّ كانت المسؤولية كاملة وثقيلة على الأعناق التي تنوء بها الظهور ، وتشيب لها الولدان .

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى : « فمن أهمل تعليم ولده ما ينفعه ، وتركه سُدى ، فقد أساء إليه غاية الإساءة ، وأكثر الأولاد إنما جاء فسادهم من قبل الآباء وإهمالهم ، وترك تعليمهم فرائض الدين وسننه ، فأضاعوهم صغاراً ، فلم ينتفعوا بأنفسهم ، ولم ينفعوا آباءهم كباراً كما عاتب بعضهم ولده على العقوق ، فقال الولد : يا أبتِ! إنك عققتني صغيراً فعققتك كبيراً ، وأضعتني وليداً فأضعتك شيخاً » .

* * *